في أسس الاصلاح الاجتماعي

خلائق تنقصنا

لاسماعيل مظهر

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

[قرآن كريم]

قد يكون من الأشياء التي أهملها جميع الذين تكلموا في الاصلاح الاجتماعي، نقد الأسس الاخلاقية التي يقوم عليها نظامنا الاجتماعي. ذلك بأن الذين تناولوا موضوع الاصلاح الاجتماعي في مصر لم ينظروا في وجوه ذلك الاصلاح على اعتبار ان مختلف تلك الوجوه انما هي مظاهر لجوهر يكمن من ورائها ومجلى لأصل واحد إليه تعود. فكما ان الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط انما هو صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن في العدسة، كذلك نقائص الاجتماعية التي حاول اصلاحها، انما هي مظاهر لعنصر او أصل واحد يتحصر في ضعف الأسس الاخلاقية التي تختفي وراء نظمنا الاجتماعية. وكما أنك لا تستطيع بحال ان تغير شيئاً من تفاصيل ذلك الشبح الذي ينعكس من العدسة على الحائط إلا اذا استطعت ان تغير تفاصيل ذلك الشبح في داخل العدسة، كذلك أرى ان الاصلاح الاجتماعي في مصر لن يكون له كبير فائدة الا اذا تناول أولاً وقبل كل شيء الأسس الاخلاقية التي هي أشبه بالشبح الذي تتراءى فيه نظمنا الاجتماعية، اذا ما انعكس على صفحة الحياة.

***

خذ مثلاً نظامنا السياسي. فقد نشكو من مظاهر فيه ونحاول ان نعلل أسباب هذه المظاهر بضعف النظام الحزبي، ونسى العامل الاخلاقي. وقد نصرخ الصرخات العاليات من سوء حال التعليم في المدارس او الجامعة ونحاول ان نصلح التعليم في أدواره باصلاح في البرامج او تعديل في المواد، ونسى العامل الاخلاقي. ونشكو من ان دولاب الحكومة لا يدور لا بعدد من الموظفين زائد عن الحاجة ونحاول ان نعالج هذا النقص إما بالاقلال من الموظفين وإما بخفض

مرئياتهم ، ثم على العامل الاخلاقي . وهكذا اذا نظرت في كل ما يشكو منه الشكوى بما تقول انه في حاجة الى اصلاح اجتماعي ، فانك تجد أن أنظارنا قد اتجهت الى الأسباب الظاهرة دون الأسباب الخفية ، وتلبي أننا قد عنينا ببحث في الاصلاح الاجتماعي عن الأعراض محاولين اصلاحها فتخلق ، لأننا لم نحاول اصلاح الجوهر الذي يتمثل في ما هيته تلك الأعراض. فاذا لم نحاول اصلاح الجوهر كان مثلنا كمثل من يحاول أن يمحو الظل المرسوم على عود أعوج. أما اذا استقام العود فلا بد إذن من أن يستقيم الظل

***

أما اذا اعتقدنا ان الاصلاح الاجتماعي لا يزيد عن أنه صرخة يطلقها في نفوسنا وعلى ألسنتنا شعورنا بالنقص وانها تبقى الكلمات ، كان ذلك وحده دليلاً على ان نفوسنا بدأت تتحرك وأن أرواحنا بدأت تستيقظ . غير ان الصرخة العالية التي تصرخها مئات الملايين بضرورة الاصلاح الاجتماعي سوف تذهب مع الريح اذا نحن لم نواجه نقائصنا بخلق جديد يكون فيه من القوة والصراحة والحزم ما يمكننا من معالجة مشاكلنا الاجتماعية بما يلزم لعلاجها من وسائل حقيقية . أما اذا ظللنا نعدد تلك النقائص تقيسة تقيسة ، ونصف مظاهرها مظهراً مظهراً ، ونترك لكل منها العلاج الذي يمليه علينا الفكر او يوحيه الينا الخيال ، من غير أن نفكر مرة فيما يتقصنا من الأخلاق التي تكفل لنا بالرياضة عليها ورياضة النفس بها ، تحقيق ذلك الاصلاح المنشود . فاننا ولاشك سوف نخلق فيما نحاول من اصلاح اجتماعي ، زاد شعورنا بالحاجة اليه تمام الأحوال المثالية التي نكتفنا في هذا الوقت الدقيق

***

أما اذا أردنا ان نعدد الخلائق التي تنقصنا والتي نحن علينا ان نتسلح بها لكي نصلح اصلاحاً اجتماعياً ، فانت لا تركن قريب الفكر . فانا ولا شك ينبغي أن نقلع عن الصرخة التي اتبعت حتى اليوم في كل مقاتلنا حتى نقدر نصيب ان نحس بعض النواحي بأي نقد او اشارة ، وقد نخشى ان لم نطرف من نقائص صائحة من طوائف الأمة أو طبقة من طبقاتها حذر أن يثير فينا شيء من نقائصها عاصفة من انكر الفزع يكون من نتائجها تكدير حالة الاستقرار التي تشيدها الدولة الآن من اجل مثلاً . ولكن إن وجدت الكاتب ذا الجرأة الذي يتناول مثل تلك الاشياء بانتقد فانك قد لا تجد الصحيفة التي تنشر ما يكتب . هذا مثل بدلنا على أن العجز عن الاصلاح الاجتماعي ليس يرجع الى جهلنا موضع العلة ولا صفة العلاج وانما يدلك على أن هنالك خلائق تنقصنا كالصراحة والجرأة وضبط النفس والحزم في معالجة مختلف الموضوعات

والمشاكل التي تشغلنا . وهذه الخلائق لا ينبغي أن تقصر على الناقد وحده بل ينبغي أن تكون في الناشر وفي المصلح وفي اعضاء الطائفة أو الطبقة المنقودة وبخاصة في الرجال القائمين على المؤسسات التي هي العمد الأولية لصرح البناء الاجتماعي . ذلك بأن التعاون على الاصلاح الاجتماعي لن يتحقق الا بوسيلة واحدة هي ألا تقف من الحقائق بل نواجهها ، وألا نتكش عن البحث وراء الحقائق اذا جبناها . ينبغي أن يشعر كل فرد منا شعوراً ثابتاً قوياً بأن نقائص المجتمع انما هي نقائص فيه بالذات وان المجتمع اذا كملت فطنه واستقامت أحواله وكانت أقرب الى المثل العليا فذلك دليل على قربه هو من الكمال وتدرجه نحو المثل الأعلى من النظام الانساني . فخليقة التضامن على الاصلاح الاجتماعي ينبغي أن تقوم على شعور الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من المجتمع ، وشعور الجماعات بأن الأفراد وحدات لها منها تتكون وبصلاحها تصلح وبفسادها تفسد . ثم إذا اشتد شعور الفردية في الأفراد وقابله من جانب الجماعات شعور بأنها فوق الفرد ، فذلك هو التفكك الاجتماعي بعينه . وتلك حالة تشعر بأنها شديدة الوطأة علينا في العصر من كل محاولة حاولناها في الاصلاح الاجتماعي .

* * *

وليس ينقصني الدليل على صحة ما أقرر هنا . وانما استمد الدليل من مشاعري وأنا بصدد كتابة هذه الأسطر . فاني أشعر اني اكتب بتحفظ ، وأشعر أني اميل الى أن أمس الموضوع مسّاً رقيقاً خشية ان اجرح فيه بعض النفوس ، وأشعر أن هناك قوات تكتنفني أخشى أن تغضب أو أن تثور ، وأشعر بين جماعات قد تقف مني موقف العداء ان مسستها بنقد ، وأشعر بأن أفراداً قد يزورون في مفاتيح من نقد انتقاداً على حق لهم موهوم . اما اذا اردنا أن نصلح اصلاحاً اجتماعياً صحيحاً فعلينا أن نزود أفراداً وجماعات وطوائف وطبقات ، بالكثير من الشجاعة وبالكثير من حرية الرأي وسط النفس ، وان نشعر بأن الاصلاح الاجتماعي لن يتأتى لنا الا بالتعاون الوثيق بين مفكرين وأهل السلطة منا ، وان الناقد لا يقصد بنقده ايذاء الاصلاح ، وان الرأي ينبغي ان يوزن بما فيه من قيمة ذاتية لا بما نقائله من فيه في المجتمع ، فقد ينطق الصغير بالحكمة وقد ينطق الكبير بقائل الرأي ، وان لنقد جميعاً وفي طليعتنا النقاد والمفكرون ان نكبر على أهل الكبر صدقة يتصدق بها عليهم لوجه الله وابتغاء الاصلاح ليرعوي أهل الكبر منا عن كبريائهم ، وليعلموا ان في هذه الأمة رجالاً أحرار الفكر مستقلي الرأي يمثلون للأمة ولمستقبل الأمة

وما اقصد بالخليقة هنا الا مفردات الخلق ووحداته . فاذا اعتبرنا الخُلُق كلاً ، كانت

الخلائق وحدات ذلك الكل . وما كان لنا أن نمدّد النقائص التي نشهدها في أخلاقنا ونبحث كل منها ونقدر ما كان لها من الآثار السيئة في نهضتنا وفي قضائنا الاجتماعي ، وإنما نحاول في هذه الفقرة أن نتناول بعض النواحي التي كان لتلك النقائص أكبر الأثر فيها . وإنّ نتيجة واحدة من نقائصنا إنّ نحن ذكرناها وأردنا أن نعدّد آثارها في مجتمعنا ، لوجدنا أن أثرها قد يمتد ويتشعب إمتداداً قد يصل الى غايات بعيدة نصية ، حتى ليخيل اليك أن تلك النتيجة بذاتها هي السبب فيما نشعر من تخلخل في كياننا . فاذا قلنا مثلاً أن الصراحة تنقصنا ، وأنها لا تنقص أصحاب المناصب الكبرى لا غير وإنما تنقص الرجال الذين هم بسبيلهم ليصبحوا من أصحاب المناصب الكبرى ليواجهوا المجتمع كاملاً ، لكان ذلك أن يكون أصلاً لتشعب فروعه الى أبعد أغوار حياتنا الاجتماعية . وإنما أريد بهذه البحوث أن أتناول بعض النواحي التي نشعر بأن نقائصنا الخلقية كانت السبب المباشر في صدنا عن أن نصل الى الثقة في أسباب الاصلاح الاجتماعي

ويقتضي نبادر الى بعض الباحثين أن الاصلاح الاجتماعي إنما يقصد به إصلاح الفروع لا الاصول ، وما أركاناً واحداً أكثر نظراً الى الأصول ليتبين أن الأصل الذي يصدر عليه الحكم فاسد ويطلب تبديله مثلاً ، وإنما رأينا أن كل محاولة للاصلاح من الحكم قد إقتصرت على الكلام في الفروع ، فالبرامج فرع وموارد الدراسة فرع والادارة فرع ، أما الأصل وهو الأمة فلم تتناوله يد بسوء من الاصلاح . فمن يحاول مثلاً إصلاح الفقر ولا يحاول إصلاح الصانع ولا نظره في المرعى الخصب الذي ترعى فيه من غير أن تعدّ له عدة ولا تحسب حساب نتائجه المفسدة التي ينبغي أن تكون الأصل الأول الذي نستعد له في إقامة أساس جديد للتفكير والتربية وهذا نشعر بأن خليقاً بنفسه في حقيقة الأمر هي الاصلاح بتناول الأصول وخويصتها وقائمة بلاءم مصلحة الأمة ومزاجها أو تشوهها تشويهاً تاماً وتبدل منها شعباً آخر في قابلية وثقافة أخرى .

xxx

وإني إنما ضربت المثل بالتعليم لأنه أقرب ما يشغل بالنا في هذه الأيام ، ولكن ما تولك باقتصادنا وأحزابنا وصحافتنا وجيشنا ومؤسساتنا العملية وغير ذلك مما يقوم عليه صرح حضارتنا الاجتماعية ؟ هذه أشياء ينبغي أن نعالجها بأن تكون نقائصنا الاخلاقية ، ولا نستطيع أن نكمل نقائصنا الاجتماعية إلا بأن نفقد هذه النواحي فقداً سريعاً به نعرف أي الخلائق تنقصنا فنعمل على التكمل به ليكون الأساس الثابت لكل إصلاح نحاوله